المبحث الأول

التشبيه

التشبيه:

يعد التشبيه اسلوبا من أساليب البيان له مكانته السامية بين فنون البلاغة عند العرب، بوصفه وسيلة للايضاح والابانة، لذلك فقد غمروا تعابيرهم به وطرزوها بصوره المتنوعة، ((ولو قال قائل هو اكثر كلامهم، لم يبعد..... وهو باب كانه لا آخر له))[1].

التشبيه لغة:

الشبه والشبيه: المثل، وأشبه الشيء: ماثله، وتشابه الشيئان واشتبها: اشبه كل واحد منهما صاحبه[2].

التشبيه اصطلاحا:

تعددت تعريفات البلاغيين للتشبيه، ولكنها تؤدي الى معنى واحد، فهو((الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى))[3].

التشبيه عند السابقين للرماني:

ان اول إشارة الى التشبيه نجدها عند سيبويه في باب: (استعمال الفعل في اللفظ لافي المعنى لا تساعهم في الكلام والإيجاز والإختصار) إذ يقول في قوله ﷻ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[4]: ((فلم يشبهوا بما ينعق، وانما شبهوا بالمنعوق به، وانما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لايسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى))[5] بالمعنى))[5] وتحدث عن ادوات التشبيه كالكاف ومثل [6]، وتحدث أيضاً عن وجه الشبه بقوله:((وقد يشبهون الشيء بالشي وليس مثله في جميع احواله))[7]، ويضعف سيبويه قول

(1) الكامل: 3/93،152.
(2) =: ل: 13/503 مادة (شبه).
(3) الايضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني: 2/328.
(4) سورة البقرة: 171.
(5) الكتاب:1/212.
(6) =: م ن:1/408.
(7) ن:1/182.

استاذه الخليل في التشبيه إذ يقول ((وزعم الخليل ان يجوز: له صوت صوت الحمار، على الصفة، لانه تشبيه فمن ثم جاز ان توصف النكرة به، وزعم الخليل رحمه الله انه يجوز ان يقول الرجل: هذا رجل اخو زيد، إذا اردت ان تشبهه باخي زيد، وهذا قبيح وضعيف لايجوز إلاّ في موضع الاضطرار))[1]، وينقل لنا سيبويه حديث الخليل عن احدى ادوات التشبيه فيقول ((وسالت الخليل عن كان، فزعم انها (إن) لحقتها الكاف للتشبيه، ولكنها صارت مع ان بمنزلة كلمة واحدة))[2].

ويتحدث الفراء عن التشبيه خلال تفسيره للايات، ويبين احيانا طرفي التشبيه ووجه الشبه، من ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [3]، يقول: يقول: ((فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة في اختلاف الوانها بالدهن واختلاف الوانه))[4].

ونجد عند ابي عبيدة اشارات الى التشبيه، ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [5]، يقول: ((مجازه مجاز المثل والتشبيه)) [6]، وكذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [7]، يقول: ((ومجاز الآية مجاز التمثيل))[8].

ويشير الجاحظ الى بعض اركان التشبيه عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ [9]، يقول: ((شبه رفضه وقذفه لها من يديه، ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له))[10]، وقد أشار الجاحظ الى شيء من الاثر النفسي[11] في التشبيه.

ويعقد ابن وهب بابا للتشبية يقول فيه: ((واما التشبيه فمن اشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه الطف، كان بالشعر

(1) الكتاب:361/1.
(2) م ن: 3/ 151 .
(3) سورة الرحمن: 37.
(4) معاني القرآن: 3/ 117.
(5) سورة النحل: من 26 .
(6) مجاز القرآن: 1/ 359.
(7) سورة التوبة: من 109.
(8) مجاز القرآن: 269/1.
(9) سورة الاعراف: من 176.
(10) الحيوان: 17/2.
(11) =: م ن: 127/7.

اعرف،وكلما كان الى المعنى اسبق كان بالحذق اليق))[1]. والتشبيه عند ابن وهب على قسمين: الاول ((تشبيه الاشياء في ظواهرها والوانها ومقدارها كما شبهوا اللوان بالخمر، والقد بالغصن، وكما شبه الله ﷻ النساء في رقة الوانهن بالياقوت وفي نقاء ابشارهن بالبيض))[2]، والثاني ((تشبية في المعاني كتشبيههم الشجاع بالاسد والجواد بالبحر، وكما شبه الله ﷻ اعمال الكافرين في تلاشيها مع ظنهم انها حاصلة لهم، بالسراب الذي إذا دخله الظمآن الذي وعد نفسه به لم يجده شيئا)) [3]، ويعقد ابن وهب خلال حديثه عن التشبيه موازنات بين الآيات القرآنية المتضمنة صورا تشبيهية وابيات من الشعر ليقول بعد ذلك ((وهذا كثير في القرآن والشعر وما ذكرنا منه دليل على ماتركنا))[4]، وكانه اراد ان يظهر يظهر من خلال ذلك امرين، الاول: ان القرآن الكريم في التشبيه قد جاء باساليب العرب، لاسيما انه يستمد عناصر الصورة التشبيهية من الطبيعة، والثاني: بلاغة الصورة التشبيهية في القرآن وروعتها وان ما في كلام العرب من تشبيهات لايصل الى درجة هذه البلاغة المعجزة. ولا شك ان القسم الاول من اقسام التشبيه عند ابن وهب يمثل التشبيه الحسي[5]، والقسم الثاني يمثل تشبيه المعقول بالمحسوس، وهو ما يقابل عند الرماني - كما سنرى - اخراج مالا تقع عليه الحاسة الى ماتقع عليه الحاسة[6].

ولم يعقد ابن قتيبة بابا للتشبيه، ولكنه جاء مبثوثا في صفحات كتابه، من ذلك اشارته الى التشبيه في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [7]، إذ يقول: ((فاعلمنا ان هناك اكوابا لها بياض الفضة وصفاء القوارير، وهذا على التشبيه، اراد كانها من فضة))[8].

ويعقد المبرد بابا للتشبيه يكثر فيه ذكر امثلة التشبيه عند العرب شعرا ونثرا، ويكثر من التسميات لانواع التشبيه، والتي يتقارب بعضها من بعض الى حد الاتفاق في المضمون، من هذه الانواع (التشبيه المصيب، والعجيب، والمحمود، والمستحسن، والحسن،

(1) البرهان في وجوه البيان / 130.
(2) م ن / 130.
(3) ن/ 131.
(4) ن/132.
(5) وهو ((المدرك هو أو مادته باحدى الحواس الخمس الظاهرة))، الايضاح في علوم البلاغة: 119/2.
(6) =: ر / 81 -82.
(7) سورة الانسان: من 15 و 16.
(8) تاويل مشكل القرآن /80.

والمتجاوز المفرط، والمطرد على السنة العرب، والقاصد والجيد، والمليح)[1]، ثم يعود المبرد بعد ذلك ليقول: ((والعرب تشبه على اربعة اضرب، فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج الى التفسير ولايقوم بنفسه وهو اخشن الكلام))[2] ويعطى امثلة لكل نوع دون وضع حدود لها، فالتشبيه الجيد والحسن والمليح تجتمع في معنى واحد، والبادي ان المبرد يعتمد في اطلاق هذه التسميات على مدى تاثره وانطباعه بحسن التشبيه أو قبحه، وقد ارجعها الى اربعة اضرب لانه - ربما - شعر انها متداخلة.

والمبرد من اوئل الذين تحدثوا عن حد التشبيه إذ قال: ((واعلم ان للتشبيه حدا، لأن الاشياء تشابه من وجوه، وتباين من وجوه، فانما ينظر الى التشبيه من اين وقع، فاذا شبه الوجه بالشمس والقمر فانما يراد به الضياء والرونق ولا يراد به العظم والاحراق))[3]، فالمبرد يوضح وجه الشبه ويذهب الى انه لا يصل الى حد التطابق بين الطرفين في كل شيء، ويؤكد ذلك بقوله: ((والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والكثيب والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة، وانما تقصد من كل شيء إلى شيء))[4]، ويشير الى كثرة التشبيه في كلام العرب بقوله: ((والتشبيه جار كثير في كلام العرب، حتى لو قال قائل هو اكثر كلامهم لم يبعد))[5]، ويقول أيضاً: ((والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له))[6].

وعند ثعلب نجد التشبيه فرعا من اصول قواعد الشعر، ولايذكر عنه شيئا سوى الشواهد الشعرية دون تعليق[7].

وعند ابن المعتز نجد ان حسن التشبيه من محاسن الكلام، ويورد له الكثير من الشواهد الشعرية مستخدما بعض التسميات، منها (التشبيهات العجيبة، والتشبيه الحسن، ومن احسن التشبيه)[8] ويستند في اطلاق هذه التسميات الى انطباعات نفسه وتاثرها باقوال

(1) =: الكامل: 3/32،35،38،42،46،102،130،140،142.
(2) م ن: 3/128.
(3) ن: 3/128.
(4) ن:3/54.
(5) ن: 3/ 93.
(6) ن: 3/152.
(7) =: قواعد الشعر / 29 - 40.
(8) =: كتاب البديع / 69، 72، 73.

باقوال الشعراء وتشبيهاتهم ولا يذكر مقياسا للتفاضل بينها، ولا يعلق على التشبيه، واركانه وبلاغته بشيء.

ومن ابرز ماجاء في كتاب ابن طباطبا، التشبيه، إذ يتحدث عن طريقة العرب فيه بقوله ((واعلم ان العرب اودعت اشعارها من الاوصاف والتشبيهات والحكم، ما احاطت به معرفتها وادركه عيانها، ومرت به تجاربها وهم اهل وبر، صحوتهم البوادي وسقوفهم السماء، فليست تعدو اوصافهم ما رأوه منها وفيها..... فتضمنت اشعارها من التشبيهات ما ادركه من ذلك عيانها وحسها إلى ما في طبائعها وانفسها من محمود الاخلاق ومذمومها))[1]، فهو يرى ان التشبيه عندهم يستند في عناصره الى الطبيعة مما يشاهد العربي في بيئته، فضلا عن ان الصورة التشبيهية عندهم تعبير عن تاثرهم بمشاهد الطبيعة. اماعن اضرب التشبيه عندهم فيقول: ((بعضها احسن من بعض، وبعضها الطف من بعض، فاحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ويكون صاحبه مثله مشتبها به صورة ومعنى، وربما اشبه الشيء الشيء صورة وخالفه معنى، وربما اشبهه معنى وخالفه صورة، وربما قاربه وداناه أو شامه واشبهه مجازا لا حقيقة))[2]. حقيقة))[2].

إلاّ أن ابن طباطبا يعقد بابا مستقلا آخر بعنوان (ضروب التشبيهات) يتحدث فيه عن ضروب مختلفة للتشبيه[3]:

الاول: تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة كقول امريء القيس[4]:

كان عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع الذي لم يثقب

الثاني: تشبيهه به معنى كتشبيه الجواد الكثير العطاء بالبحر، والشجاع بالاسد، وهو ما يقابل التشبيه النفسي عند الرماني[5].

الثالث: تشبيهه به حركة وبطؤا وسرعة.

الرابع: تشبيهه به لونا.

(1) عيار الشعر / 10 - 11.
(2) م ن / 11.
(3) =: ن / 17-22.
(4) ديوانه /53، و =: عيار الشعر / 18.
(5) =: ر / 80.

الخامس: تشبيه به صوتا،

السادس: ان تمتزج هذه المعاني بعضها ببعض، ويرى ان الطرفين إذا اتفقا باكثر من معنى كان ذلك التشبيه قويا وتاكد الصدق فيه[1]. ويتحدث ابن طباطبا عن ادوات التشبيه أيضاً، ويجعل ذكرها وحذفها مقياسا لصدق التشبيه إذ يقول: ((فما كان من التشبيه صادقا قلت في وصفه (كانه) أو قلت (ككذا)، وما قارب الصدق قلت فيه (تراه أو تخاله أو يكاد)))[2]، وربما يعني بالصدق التطابق والقرب ودرجة التشابه أو صدق وجه الشبه. ويفصل ابن طباطبا اركان التشبيه بدقة إذ يقول في قول امري القيس[3]:

نظرت إليها والنجوم كانها مصابيح رهبان تشب لقفال

((فشبه النجوم بمصابيح رهبان لفرط ضيائها وتعهد الرهبان لمصابيحهم وقيامهم عليها لتزهر الى الصبح، فكذلك النجوم زاهرة طول الليل وتتضاءل للصباح كتضاؤل المصابيح له... فشبه النجوم ومواقعها من السماء بتفرق النيران واجتماعها في مكان بعد مكان على حسب منازل القفال من احياء العرب، ويهتدى بالنجوم كما يهتدى القفال بالنيران الموقدة لهم))[4].

ويتحدث قدامة عن التشبيه فيقول: ((انه من الامور المعلومة ان الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحدا، فبقي ان يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في اشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها))[5].

ويعرض قدامة بعض التشبيهات الشعرية موضحا فيها وجه الشبه، إذ يقول معلقا على قول اوس بن حجر الذي شبه ارتفاع اصواتهم في الحرب تارة، وهمودها وانقطاعها تارة اخرى بصوت التي تجاهد اول ولادة [6]:

(1) =: عيار الشعر / 17 - 22.
(2) عيار الشعر / 23.
(3) ديوانه / 31، و =: عيار الشعر / 23.
(4) عيار الشعر / 23 -24.
(5) نقد الشعر / 122.
(6) ديوانه: 31، و =: نقد الشعر / 123.

لنا صرخة ثم اسكاته كما طرقت بنفاس بكر

((ولم يرد المشبه في هذا الموضع نفس الصوت، وانما اراد حاله في ازمان مقاطع الصرخات، واذا نظر في ذلك وجد السبب الذي وفق بين الصوتين واحدا وهو مجاهدة المشقة والاستعانة على الألم بالتمديد في الصرخة))[1]، وهكذا يشير الى المشبه والمشبه به ووجه الشبه دون تسميتها، حتى لو تعدد وجه الشبه، وقد اوضح هنا جانبا من الاثر النفسي الذي تضمنته الصورة التشبيهيه، ويشير قدامة الى بعض انواع التشبيه[2]، كتشبيه اربعة باربعة، وتشبيه شيء بأشياء متعددة[3]، وتشبيه شيء في تصرف احواله بأشياء تشبهه في تلك الاحوال.

وفي ضوء ذلك فإن السابقين للرماني قد استخدموا لفظ (التشبيه) وتحدثوا عن معناه من غير ان يضعوا له تعريفا، وتحدثوا عن اقسامه المختلفة، والتي سنجد بعضا منها عند الرماني لا سيما ما جاء عند ابن وهب، ولعل المبرد من اوائل الذين نبهوا الى حد التشبيه، ولكنه مع ذلك لم يضع حدا واضحا بل تحدث عن معنى التشبيه من خلال وصف وجه الشبه وتعدده وقربه ووضوحه بين الطرفين، فهو يعد اتفاق الطرفين في صفات منفردة مما يعطي التشبيه قوة، بخلاف ما ذهب إليه ابن طباطبا الذي تحدث عن ضروب التشبيه ومنها التشبيه النفسي الذي سنجده عند الرماني، ويرى ابن طباطبا ان اتفاق الطرفين في اكثر من صفة يمنح التشبيه قوة وصدقا، وكلما قل في التشبيه استخدام الاداة كان اصدق، أي: صدق وجه الشبه، أمّا قدامة فيرى ان التشبيه يكون في الاتفاق في بعض الصفات، واذا كان هناك تطابق في كل شيء، يتحد الاثنان فيصيران واحدا، وهكذا يمثل هؤلاء الثلاثة اختلاف الآراء في هذه المسألة أو اختلاف وجهات النظر المستمر[4].

التشبيه في منظور الرماني:

لم نجد عند السابقين للرماني من يضع حدا للتشبيه على الرغم من استعمالهم له وحديتهم عن مغزاه، واكثراهم من فروعه وأقسامه، لذا يمكن القول ان الرماني هو اول من وضع تعريفا للتشبيه حيث قال:((التشبيه هو العقد على ان احد الشيئين يسد مسد الآخر في

(1) نقد الشعر / 123-124.
(2) =: م ن / 128.
(3) وهو مايسمى بتشبيه الجمع وفيه يتعدد المشبه به دون المشبه. =: معجم المصطلحات البلاغية: 188/2.
(4) =: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، مصطفى الصاوي الجويني / 129-130.

حس أو عقل ولا يخلو التشبيه من ان يكون في القول أو في النفس))[1]. وقد نقل ابن ابي الاصبع المصري[2] تعريف الرماني للتشبيه وأقسامه وشواهده، ونقل الباقلاني[3] هذا التعريف أيضاً دون ذكر للرماني.

يضمن هذا التعريف ثلاثة مسائل مهمة اوجزها الرماني فيه، واطال البلاغيون الحديث عنها:

المسألة الاولى: تعريف التشبيه، فقد استخدم الرماني كلمة (العقد) لتكون شاملة لما يذكره بعد ذلك من (حس أو عقل) أو (قول أو نفس)، ولتعبر عن وظيفة اداة التشبيه أيضاً، إذ هي تعقد المشبه بالمشبه به، كما انها تدل على العلاقة المعقودة بين الصورة التشبيهية والنفس، فالعقد ((هو عقد الكلام أو ربطه واقامة هيئته على صورة تفيد ان احد الشيئين شبه بالاخر))[4].

المسألة الثانية: تتعلق باختلاف وجهات النظر ازاء حسن التشبيه وقوته التي تتبع قوة وجه الشبه أو طبيعة الجمع بين الطرفين من حيث البعد والقرب والوضوح وقد اشرنا إلى شيء من ذلك عند السابقين للرماني[5].

وفي التعريف يوجز الرماني رأيه في هذه المسألة بقوله: (احد الشيئين يسد مسد الآخر) وكلام الرماني يحتمل وجهين:

- **الوجه الأول:** ان قيام احد الطرفين مقام الآخر لا يعني الاتفاق من جميع الوجوه وانما يعني ان الطرفين يسد احدهما مسد الآخر في الصفة أو الصفات المشتركة فقط[6]. وفي ضوء ذلك يكون رأي الرماني هو الاعتماد على قوة العلاقة أو الصفة الصفة المشتركة ووضوحها بين الطرفين، فالجمع بين المتباعدين إذا كان صحيحا من حيث وجود العلاقة وقويا كان ذلك سببا في حسن التشبيه[7]، فضلا عن حس النفس بالطرفين، لذلك نجد الرماني يؤكد على الحس والعقل والنفس في تعريفه

(1) ر/80.
(2) =: تحرير التحبير: 159/1.
(3) =: إعجاز القرآن / 263 - 264.
(4) الإعجاز البلاغي /98.
(5) =: ص من هذه الرسالة.
(6) =: الإعجاز البلاغي / 98.
(7) =: التصوير البياني، محمد ابو موسى /128.

للتشبيه، وهو ما اكده عبد القاهر الجرجاني بعد ذلك إذ يرى ان التشبيه لا بد ان يقوم على رابطة يقرها العقل وترضاها النفس[1].

- **الوجه الثاني:** وهو ان الرماني في هذه المسألة من انصار ابن طباطبا، إذ ان دلالة هذه العبارة هي ان الاتفاق بين الطرفين كلما ازداد في صفتين أو اكثر اعطى التشبيه قوة وحسنا وهو ما لم يؤيده المبرد وقدامه - كما اوضحنا -، وقد أكّد الرماني على ان هذا الاتفاق الذي يصل إلى ان يسد احدهما مسد الآخر يكون في الحس أو العقل ثم اعطى امثلة لذلك بقوله:

((التشبيه الحسي فكمائين وذهبين يقوم احدهما مقام الآخر ونحوه واما التشبيه النفسي فنحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم سادة مسد أخرى فتشبه))[2].

لكن ما اورده ابن رشيق من حديث للرماني عن التشبيه يوضح المسألة اكثر، يقول ابن رشيق: ((والتشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الاغمض إلى الاوضح، ويقربان البعيد كما شرط الرماني في كتابه، وهما عنده في باب الاختصار، قال: واعلم ان التشبيه على ضربين: تشبيه حسن وتشبيه قبيح، فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الاغمض إلى الاوضح فيفيد بيانا، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك، قال: وشرح ذلك إنما تقع عليه الحاسة اوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة، والمشاهد اوضح من الغائب، فالاول في العقل اوضح من الثاني، والثالث اوضح من الرابع، وما يدركه الانسان من نفسه اوضح مما يعرفه من غيره، والقريب اوضح من البعيد في الجملة، وما قد الف اوضح مما لم يؤلف، وقال في موضع آخر: التشبيه على ضربين والاصل واحد، فاحدهما التقدير والاخر التحقيق، فالذي يأتي على التقدير التشبيه من وجه واحد دون وجه، والذي يأتي على التحقيق التشبيه على الاطلاق وهو التشبيه بالنفس مثل تشبيه الغراب بالغراب))[3].

ويبدو ان هذا النص وان لم يرد في النكت - يأتي مكملا لما اورده الرماني من اقسام للتشبيه من جهة وموضحا للتعريف من جهة اخرى ، كما يبين موقفه من مسألة حسن التشبيه وقوته، فهو يؤكد هنا على الوضوح ويعده الشرط الاول لقوة التشبيه وهو ما تؤكده

(1) =: اسرار البلاغة /152.
(2) ر / 80-81.
(3) العمدة: 256/1 - 257.

اغراض التشبيه الاربعة عنده[1]، كما انه اوضح هنا ان من التشبيه ما يسد مسد آخر واطلق عليه تسمية (التحقيق)، ومنه ما يأتي فيه التشبيه من وجه واحد فيسد مسد آخر في الصفة المشتركة وهو ما اسماه (التقدير)، وهكذا فان كلام الرماني شامل لكلا الوجهين السابقين، والمهم عنده هو الوضوح وليس تعدد الصفات.

المسألة الثالثة: هي ما تضمنه التعريف من الإشارة إلى الاسس االنفسية، فهو من اوائل الذين اشاروا إليها بعد الجاحظ وابن طباطبا وقدامة - كما مر سابقا -، وتتجسد اشارته إلى ذلك في قوله: (ولا يخلو التشبيه من ان يكون في القول أو في النفس) بعد ان أشار إلى الحس والعقل في التشبيه، وبذلك يستكمل الرماني حديثه عن الصورة التشبيهية واهميتها فليس الحس وحده هو الذي يجمع بين الطرفين بل النفس أيضاً إذ لها النصيب الاكبر في ذلك، فالشقائق تشبه الثياب المروية بالدم ولكن حال النفس مع الشقائق لا يشبه حالها مع هذه الثياب، وقد جاء تأكيده هنا على الاثر النفسي تمهيدا لما سيعرضه من الصور التشبيهية في القرآن الكريم وبيان اثرها النفسي، لا سيما ان تشكيل المعاني في الصور الحسية - والذي أكّد عليه الرماني - هو مما تستحسنه النفس، وسبب ذلك كما يرى عبد القاهر الجرجاني ان الصور والمحسوسات كانت هي الوسيلة الاولى لادراك الانسان، حيث لم يتسع ذهنه إلى شيء غير ما يراه ويحسه، وببطء شديد اخذت المعرفة من وراء هذه المحسوسات تصل إلى عقل الانسان، ثم بدأ الانسان بجرد المعاني ويستخلصها من الاشياء، وبدأ الادراك الذهني وسيلة ثانية من وسائل المعرفة، ثم جاءت اللغة المجردة وانتزعت الكلمات من الصور والاجسام ولهذا تكمن في اكثر الالفاظ دلالات حسية تعبر عنها اصواتها، فالتعبير عن المعقول بالمحسوس عودة إلى طبيعة اللغة الاولى، إلى اللغة المصورة[2].

ومما يوحي به تعريف الرماني التفريق بين التشبيه بمعناه اللغوي العام، و التشبيه بمعناه البلاغي والذي اطلق عليه (التشبيه البليغ).

---

(1) =: ر/81.

(2) =: اسرار البلاغة /113 وما بعدها، التصوير البياني، محمد ابو موسى /136.

ولم يفت الرماني ان يؤكد على المعنى وارتباط الصورة التشبيهية به، وذلك في قوله: ((واما العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول))[1]. كما أكّد على المعنى خلال تعليقاته على التشبيهات القرآنية التي ذكرها، فقد ادرك ان التشبيه في القرآن الكريم لم يكن هدفا يقصد إليه دون ان يتبع المعنى ويكون جزءا اساسيا تتوقف عليه دلالة الآية، إذ ان التعبير القرآني يميل إلى التصوير لذا نجده كثيرا ما يعبر عن المعقول بالفاظ تدل على المحسوسات لأن تصوير المعاني في صورة المحسوس يزيده تمكنا في النفس وتأثيرا فيها[2]، فالتشبيه نمط من انماط التصوير القرآني الذي اعجز بلغاء العرب، فكيف إذا لا يكون وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، و التشبيه الذي ادركه الرماني بهذا الوصف ليس محسنا خارجا عن اطار المضمون وانما هو جوهر داخل فيه، لذلك كان الارتباط وثيقا بين النفس والمعنى والصورة التشبيهية بعناصرها واركانها الاخرى ليكتمل بذلك الوجه المعجز، فضلا عن ارتباطه بالنظم الذي يرد فيه وهو ما سيتضح من خلال عرضه للشواهد القرآنية.

قسام التشبيه عنده:

لم يكن الرماني في مبحث التشبيه متأثرا باسلافه من حيث التفصيل في فروع التشبيه واقسامه المتعددة التسميات، فقد بقي محافظا على طبيعة منهجه في عرض وجوه الإعجاز البلاغي في نكته، فبعد ان وضع حدا للتشبيه بدأ يفصل القول فيما ضمه التعريف من اقسام، فيشير إلى قسمين:

الأول: التشبيه الحسي.

الثاني: التشبيه النفسي.

ولا شك ان التشبيه الحسي قد سبقه إليه ابن وهب[3]، و التشبيه النفسي سبقه إليه ابن طباطبا[4].

يقول الرماني: ((واما التشبيه الحسي فكمائين وذهبين يقوم احدهما مقام الآخر ونحوه، واما التشبيه النفسي فنحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم

(1) ر /80.
(2) =: من بلاغة القرآن / 65، التعبير البياني، شفيع السيد /78.
(3) =: البرهان في وجوه البيان /130.
(4) =: عيار الشعر / 17-22.

سادة مسد اخرى فتشبه))[1]. ولانه في مقام الشرح والتعليم وعرض مقدمات هذا الوجه من اوجه الإعجاز البلاغي فهو يعيد القول بصيغة اخرى حيث يقول: ((و التشبيه على وجهين: تشبيه شيئين متفقين بانفسهما، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما، فالاول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد، والثاني كتشبيه االشدة بالموت، والبيان بالسحر الحلال))[2]. ولا شك ان الاول هو التشبيه الحسي والثاني هو التشبيه النفسي.

وقد نقل ابن ابي الاصبع المصري هذه التقسيمات وزادها وضوحا فذكر ان تشبيه الشيئين المتفقين بانفسهما هو تشبيه حقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار، وتشبيه الشيئين المختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما هو تشبيه مجاز للمبالغة[3].

ويتحدث الرماني عن قسم ثالث للتشبيه هو تشبيه البلاغة إذ يقول: ((و التشبيه البليغ اخراج الاغمض إلى الاظهر باداة التشبيه مع حسن التأليف))[4]. وقد تقل ابن ابي الاصبع المصري هذا التعريف أيضاً[5].

ان ما ذكره الرماني في التشبيه البليغ يتسم بعمق النظرة ودقة الفكرة وهو اولى بالقبول لانه يتضمن الغاية والهدف فضلا عن شرطه (حسن التأليف) والذي يمكن ان يعد اول إشارة لاقتران التشبيه بالنظم فلا يكون الإعجاز في التشبيه منفصلا عن النظم، وانما لا بد من حسن التأليف لالفاظ الصورة التشبيهية وتلاؤمها مع النظم الذي ترد فيه. وتظهر إشارة الرماني هذه ادراكه بان جانبا كبيرا من قدرة الصورة التشبيهية في القرآن الكريم على التأثير يعود إلى تقديم المعنى للحواس، وانه يبدأ من المعنوي العقلي وينتهي إلى الحسي العيني، وهكذا استطاع ان يبين ان بلاغة التشبيه قرينة قدرته على تصوير المعنى[6]، وهو تأكيد على ان (روعة المعاني) من اركان الصورة التشبيهية المعجزة.

(1) ر /80-81.
(2) ر / 81.
(3) =: تحرير التحبير : 159/1.
(4) التشبيه البليغ عند علماء البيان هو ما حذفت منه الاداة ووجه الشبه، وسمي كذلك لما فيه من الاختصار والتخيل والتصور. =: معجم المصطلحات البلاغية: 2 / 180.
(5) =: تحرير التحبير: 159/1.
(6) =: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر احمد عصفور /317.

واذا كانت فكرة التقديم الحسي في التشبيه موجودة عند بعض سابقيه امثال الجاحظ وابن وهب وابن طباطبا، فان الرماني هو اول من ربط بين التوضيح وعناصر الحس في التشبيه، وقد اخذ هذه الفكرة كل من جاء بعده من البلاغيين.

ومما يظهر اهمية ما ذكره الرماني في التشبيه البليغ، ما نجده من أثر لذلك عند عبد القاهر الجرجاني إذ يقول:((ان انس النفوس موقوف على ان تخرجها من خفي إلى جلي))[1]، فهو ذات قول الرماني ((اخراج الاغمض إلى الاظهر)) وهكذا فقد كانت نظرة الرماني دقيقة لأنه رأى ان قوة ظهور المشبه به وكثرة تكراره حتى كان ادراكه ادراكا بدهيا ربما كان ذلك، المغزى من التشبيه[2]، ولذلك فقد قسم التشبيه بعد ذلك بحسب مستويات الادراك، في حين ان الاخرين ربطوا ابتذال التشبيه بكثرة التكرار واشاروا إلى ان التشبيهات المستمدة من الاشياء الواضحة القريبة تشبيهات نازلة مبتذلة كالتشبيهات التي يكثر دورانها على العيون، والتشبيهات التي تقل رؤيتها أو تأتي على طريق الندرة هي تشبيهات غريبة نادرة بديعة[3]. والحق ان ذلك لا يسري على التشبيهات القرآنية إذ فيها من الالف والقرب بمقدار ما فيها من القوة والتأثير والفضل، واذا كان من أهم سمات الصورة التشبيهية (الوضوح والتأثير) فان التشبيهات القرآنية جاءت في صورة تقع دلالتها في القلوب في سرعة وقوة على الرغم من ان المشبه به غالبا مما تألفه العين، مما يؤكد دقة ما أشار إليه الرماني في التشبيه البليغ وكذلك في اوجه التشبيه الاربعة.

ان التشبيهات القرآنية تستمد عناصرها - في الغالب - من الطبيعة، ومما تألفه النفس البشرية، لذلك ((نبه البلاغيون إلى ان صور التشبيه حين تستمد من عناصر مشتركة بين الناس يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر احفظ لبقائها وحيوتها وتأثيرها في اجيال الناس والامم))[4].

أوجه التشبيه عند الرماني:

(1) اسرار البلاغة /137.
(2) =: التصوير البياني، محمد ابو موسى / 155.
(3) =: اسرار البلاغة /146 - 147، التصوير البياني، محمد ابو موسى / 153.
(4) التصوير البياني، محمد ابو موسى /157 - 158.

يترك الرماني تشبيه الحقيقة ويبدأ بالحديث عن تشبيه البلاغة وهو عنده على اربعة اوجه[1]:

الاول: اخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة.

الثاني: اخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة.

الثالث: اخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم البديهة.

الرابع: اخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة.

وتندرج شواهد التشبيه التي اوردها الرماني تحت هذه الاوجه الاربعة وهذا التقسيم - كما اشرنا - يمثل النظرة الدقيقة للرماني في الحكم بحسن التشبيه وقوته والتي ترتبط بقوة ظهور المشبه به ومدى ادراكه فضلا عن حسن التاليف.

والوجه الاول الذي ذكره، كان ابن وهب قد سبقه إليه إذ أشار إلى تشبيه المعقول بالمحسوس واورد الآية القرآنية التي اوردها الرماني أيضاً، ولم نجد غير اشارة ابن وهب عند السابقين، إذ لم يتحدثوا عن غرض الصورة التشبيهية وغايتها كما يفعل الرماني، إذ يفصح خلال حديثه عن الغاية من التشبيه مع بيان اركانه والنظر في الصورة بشكل عام،وفي اجزائها الدقيقة أيضاً، فهو في هذه الاوجه التي ذكرها استطاع أن يبين اثر التشخيص[2] في المتلقي، فتشخيص المعاني المجردة في صور حسية في التشبيه يتمثل في اخراج مالا تقع علية الحاسة إلى ماتقع علية الحاسة، وهو مما يكسب الكلام بيانا لانه يبرز المعنى المجرد شاخصا جليا[3]، فالتشخيص اكثر فعالية وتاثيرا لقرب ادراك الصورة ولانه اقدر على احداث الاستجابة لدى المتلقي.

وقد نقل العسكري هذه الاوجه عن الرماني بشواهدها وتعليقاتها[4]، كما نقلها ابن ابي الاصبع المصري[5]، ونقلها الزركشي أيضاً[6]. واذا كان نقل هؤلاء العلماء عن الرماني

(1) =: ر /81.
(2) التشخيص: اضفاء صفات انسانية على اشياء جامدة أو افكار مجردة = معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب / 58.
(3) =: الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية / 179.
(4) =: كتاب الصناعتين /262 - 264.
(5) =: تحرير التحبير: 159/1.
(6) =: البرهان في علوم القرآن: 421/3 - 422.

واضحا جليا فان الشيخ عبدالقاهرالجرحاني أفاد أيضاً مما عرضه الرماني في التشبيه، ويظهر ذلك جليا في الموازنة الاتية:

يقول عبد القاهر: ((ان أنس النفوس موقوف على ان تخرجها من خفي إلى جلي))[1]. وهو ذات قول الرماني ((اخراج الاغمض إلى الاظهر))[2].

ويقول الجرحاني ((نحو ان تنقلها عن العقل إلى الاحساس))[3]،وهو ذات قول الرماني ((اخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه))[4].

ويقول الجرجاني: ((وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع))[5]، وعن ذلك قال الرماني ((اخراج مالايعلم بالبديهة إلى مايعلم بالبديهة))[6].

وهكذا تظهر هذه النصوص جانباً من اثر الرماني في من جاء بعده من البلاغيين، وفي ضوء ذلك تتجلى عظمة هذا التراث البلاغي الذي اوجزه الرماني بالفاظ يسيرة تنطوى على معان غزيرة افاد منها البلاغيون بعده، وستتضح دقة الاوجه الاربعه التي ذكرها من خلال عرض الشواهد وتحليلها والنظر في تعليقاته عليها، للوصول إلى راى الرماني في التشبيه بوصفه وجها من وجوه الإعجاز البلاغي، واستشفاف جوانب من بلاغة الصورة التشبيهيه المعجزه في القرآن الكريم.

شواهد التشبيه عند الرماني:

تتوزع شواهد التشبيه القرآني عند الرماني على الاوجه الاربعة التي ذكرها، وحين يضع الرماني (اخراج مالاتقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه الحاسة) في صدارة هذه الاوجه، فهذا يعني انه المعيار الاول في جودة التشبيه عنده، والبادي ان الرماني قد نوع في عرض الشواهد القرآنية وكان دقيقا في توزيعها على الاوجه الاربعة، مبينا ماتضمه من البيان المعجز، فإعجاز القرآن خالد وليس يقتصر على عصر معين، وتشترك الشواهد في العناصر التي غالبا ماتستمد من الطبيعة لتبقى المعجزة ابدية لكل العصور، وليظل التحدي قائما إلى ماشاء الله، وليرى كل جيل الوانا من الإعجاز يدركها بما اوتي من علم ومعرفة.

(1) اسرار البلاغة / 137.
(2) ر /81.
(3) اسرار البلاغة /137.
(4) ر / 81.
(5) اسرار البلاغة /137.
(6) ر / 81.

وحين يستمد التشبيه عناصر من الطبيعة فانه يهدف إلى ان يكون مؤثرا في النفوس والقلوب، فالقران الكريم يتخذ من الطبيعه ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته، فمن النبات يختار (إعجاز النخل) ومن الحيوان (العنكبوت والكلب والحمار) ومن الجماد (السراب والرماد والفخار). والتعبير القرآني في كل ذلك يعنى باقتراب الصورة من النفس وشدة وضوحها وتاثيرها، ومن ثم فقد أكّد الرماني على جانبي (الوضوح والتاثير) لانهما غاية التشبيه وغرضه[1]. وسنقف مع شواهد التشبيه عند الرماني معتمدين - في التحليل - مبدأ الاختيار بحسب عناصر الطبيعة (النبات والحيوان والجماد)، مع الإشارة إلى ماتضمنته تعليقاته على الشواهد الاخرى واثرها في بيان الإعجاز البلاغي في التشبيه، واستشفاف روعة المعاني وجمال الصورة التشبيهية واركانها في الشواهد الاخرى.

اولا: اخراج مالاتقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه:

- من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَاب** ﴾[2] يقول الرماني: ((فهذا بيان قد اخرج مالاتقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه الحاسة وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر انه على خلاف ما قدر لكان بليغا وابلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن اشد حرصا عليه وتعلق قلب به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الابد في النار - نعوذ بالله من هذه الحال - وتشبيه اعمال الكافرين بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة))[3].

ومن خلال هذا العرض يتجلى جزء من المهاد المعرفي لابي الحسن في تحليل الصورة التشبيهية واستنطاق الفاظها والاحاطة باجزائها، فقد بين فيها ركني التشبيه وهما (مالا تقع عليه الحاسة وما تقع عليه الحاسة)، والرماني ينظر إلى ما في التشبيه من عنصر البيان والكشف ،فالمعنى الذهني ماثل في صورة حية مكتملة الاجزاء، ويبين الرماني وجه الشبه أيضاً، فالصفة المشتركة التي تجمع الطرفين هي (بطلان المتوهم مع شدة الحاجة

(1) =: من بلاغة القرآن / 190، فكرة النظم بين وجوه الاعجاز / 243.
(2) سورة النور: 39.
(3) ر / 82.

وعظم الفاقة)، ولا يكتفي الرماني بذلك، بل يزيد على ما عهدناه عند سابقيه فينظر في العناصر التي تتكون منها الصورة فيجلي بذلك دقة اختيار التعبير القرآني للالفاظ وتتمثل هذه النظرة الفاحصة إلى تلك العناصر بموازنة لفظة (الرائي) مع (الظمآن)، فهو لا ينظر إلى الصورة فقط وانما إلى دقائقها ونظمها، ومن خلال هذه الموازنة ولاجلها يدخل الرماني إلى اعماق هذه العناصر وسبر اغوار الالفاظ ليتجلى الاثر النفسي لعناصر الصورة التشبيهية ويتمثل ذلك بقوله (لأن الظمآن اشد حرصا عليه وتعلق قلب به) كما يتجلى ذلك في (صحة الدلالة) التي أشار إليها، فالتشبيه ليس نمطا من انماط التصوير فحسب إنما هو نوع من الخطاب الوجداني الذي يهز القلوب بتجسيد المعنى الذهني في صورة محسوسة، فبيان خيبة الظمآن المحتاج بشدة إلى الماء وخسرانه هو خطاب ليس لهولاء الكافرين الذين ظنوا لاعمالهم نفعا فحسب، وانما هو خطاب للنفس البشرية بالإمتثال لامر الله وذم طول الامل وترك الاكتفاء بقليل الاعمال التي يظن انها نافعة ثم يعمد الرماني إلى ربط اجزاء الصورة حتى النهاية وذلك في قوله (ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره الى عذاب الابد في النار)، ويختم تحليله الموجز بالإشارة إلى ان تشبيه اعمال الكافرين بالسراب هو من حسن التشبيه،فكيف إذا تضمن (حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة)،ويبدو انه اراد القول ان لاكتمال الصورة التشبيهية مع هذه العناصر كان التشبيه من وجوه الإعجاز البلاغي،ولا شك ان الإشارة إلى (النظم) هنا تشير بوضوح إلى ان الإعجاز عند الرماني ليس في موضع التشبيه فحسب، وانما هو باجتماع الاركان التي أشار إليها جميعا، فهو لا ينظر إلى جمال التشبيه وبلاغته نظرة منفصلة عن بقية اجزاء الكلام، وقد اشترط قبل ذلك في التشبيه البليغ (حسن التأليف)، فالتشبيه لا تظهر قيمته التعبيرية إذا كان مبتورا عن بقية اجزاء الكلام[1].

وتمثل (عذوبة اللفظ) ركنا آخر من هذه الاركان يسهم في قوة التشبيه وروعته، وتعبر (كثرة الفائدة) و (صحة الدلالة) عن اثر تشبيه المعنوي بالحسي، إذ يكسب التشبيه قوة ويضاعف من تأثيره في النفوس، لأن الاشياء المحسوسة مأنوسة مألوفة لدى النفس البشرية[2]، فالخطاب الوجداني هنا ليس خطابا مباشرا، وانما هو تصوير لحال هؤلاء

(1) =: اثر النحاة في البحث البلاغي /248.
(2) =: التعبير البياني /78.

الكافرين وخيبتهم، ولنا ان نتدبر ما في الآية من دقائق تحرك مشاعرنا فندرك ان ذلك ليس تصويرا فقط وانما هو ترهيب باسلوب التصوير التشبيهي، ولا شك ان هناك فرقا - من حيث التأثير - بين الاساليب فالمعاني التي تفيض بها الاحداث والصور اغزر وابين وأقوى تأثيرا[1]، وعن كل ذلك عبر الرماني بقوله (كثرة الفائدة وصحة الدلالة).

وفي ضوء ذلك يتضح لنا منهج الرماني في عرض شواهد التشبيه وتحليلها، فهو يوضح اركان التشبيه، ويبرز غرضه وفائدته، وينظر إلى الصورة التشبيهية موحدة مكتملة الاجزاء، وينظر إليها من حيث الصياغة والتركيب مجليا بذلك احدى خصائص التشبيه في القرآن الكريم وهي اختيار الالفاظ الدقيقة المعبرة الموحية[2].

ولتجلية البلاغة القرآنية المعجزة، نتدبر الفاظ الآية، ونقف امام هذا المشهد الذي يصور اعمال الكافرين وهم يظنون انها تنفعهم يوم القيامة كالسراب، فتتعقب انظارنا رجلا مجهدا اضناه المسير وذوى من شدة العطش حتى تجمعت كل متع الحياة وملاذها في حفنة ماء يبل بها ريقه، فبدا له السراب وظنه ماء، فهرع إليه وراح يؤمل النفس ويلهث جاهدا للوصول إليه، غافلا عما ينتظره، فبذل ما بقي له من قواه المنهكة حتى إذا بلغ موضع الماء الموهوم لم يجده شيئا، وهكذا الكافرون، فيا لخيبتهم وخسرانهم، فقد غرهم طول الامل وقلة العمل، وهكذا يتحرك المعنى الذهني في صورة حية تستمد عناصرها من الطبيعة، وتكتمل اجزاؤها من حدث وشخص ومعاناة ومفاجأة ونتيجة وهدف.

ونقف اولا عند لفظ المشبه به (سراب) والتي جاءت بصيغة النكرة لتوحي بقلته، فهو ضئيل تافه، ورغم ذلك فقد تعلق به هذا الظمآن كما يتعلق الكافر بعمله القليل الضئيل المشوب بالشرك، وتوحي هذه اللفظة أيضاً بجو الصورة التشبيهية، فالحرارة شديدة لأن السراب لا يكون إلاّ وقت الظهيرة، وقد جاءت اداة التشبيه لتقوية دلالة لفظة (سراب) - فضلا عن وظيفتها الاساسية - فقد جعلت (الكاف) هذه الاعمال في مرتبة ادنى من مرتبة السراب[3]، وفي ذلك استخفاف بها واذا كان السراب لا يظهر إلاّ على الارض المنبسطة الخالية من النبات فان التعبير القرآني لا يترك ذلك وانما يذكره بلفظه (بقيعة) ولذكرها هنا دلالة اخرى وهي التقديم لوصف حال (الظمآن) ومكانه، وهو في وسط صحراء قاحلة لا

(1) =: التصوير البياني، محمد ابو موسى /7.
(2) =: من بلاغة القرآن /208.
(3) =: الإعجاز البلاغي /103.

نبت فيها ولا ماء وليس لها القدرة على الاحتفاظ بالماء، ولها دلالة اخرى ترتبط بوصف حال (الكافرين) فهم في الدنيا كأنهم في صحراء أيضاً فلا يروي النفس البشرية إلاّ عمل الخير وطاعة الله، وفي اللفظة تصغير لشأن الدنيا وملذاتها وشهواتها فهي كالصحراء، وما فيها من الملذات كالسراب أيضاً، ووصف السراب انه (بقيعة) يوحي أيضاً بنتيجة متقدمة لما سيجده (الظمآن) فلا احتمال لأن يكون هذا السراب ماءً حقا لانه (بقيعة) ولا احتمال لأن يكون لاعمال الكافرين نفع أيضاً. أمّا لفظة (يحسبه) فقد اوثرت هنا على (يظنه) لأن ((الظن ضرب من الاعتقاد وقد يكون حسبانا ليس باعتقاد))[1]، وقد اعتقد الكافرون ان اعمالهم ستنفعهم، كما اعتقد الظمآن ان السراب نافعه، فهو حسبان مليء بالاعتقاد واليقين الموهم، وهكذا صورت اللفظة ما بداخلهم من مشاعر نفسية في ذلك الموقف. ولفظة (الظمآن) التي وازن الرماني بينها وبين (الرائي) فاشار إلى ان (الظمآن) ابلغ (لانه اشد حرصا عليه وتعلق قلب به) فضلا عن الصيغة التي جاءت بها فهي تدل على الامتلاء بالوصف إلى الحد الاقصى فهو الممتلئ ضماً مع حرارة الجوف[2]. فهي مما يزيد الصورة روعة ودقة في الوصف، إذ تتجلى بذلك مشاعر هذا الظمآن في وسط صحراء لاهبة يحسب سرابها (ماء) هكذا بصيغة النكرة لتفيد بانه يتلهف إلى ماء، مهما يكن قليلا، فيسرع نحوه، يحث الخطى، ويؤمل النفس، ويزداد الجهد والتعب والاعياء، يظن - جهلا - انه سينتفع، وهكذا الكافر واعماله.

ويعلن التعبير القرآني نهاية رحلة الظمآن الشاقة ونتيجتها، فتأتي (حتى) التي تفيد الغاية وهي هنا حرف ابتداء لدخولها على (إذا)[3]، وتقترن الغاية التي وصل إليها بالمفاجاة التي ينبيء باقترابها الحرف (إذا) الذي جعل العدم جوابا للسعي ونهاية للمعاناة الطويلة، ثم لفظة (جاءه) تفيد ان المجيء كان وسيلة للقصد ومن أي وجه كان[4]، فلم يقل (وصله) أو (دخله) أو (اتاه)، والهاء فيها يحتمل ان تعود على السراب أو على العمل، و الارجح على العمل لأن الضمير في عنده عائد على العمل. و يصدم الظمآن بعد هذا الجهد بالمفاجاة: (لم يجده شيئاْ)، فذكر الضمير (الهاء) الذي يعود على السراب قد نص على الامل المنشود

(1) الفروق اللغوية /79.
(2) =: معاني الابنية في العربية /92.
(3) =: المحرر الوجيز:134/7.
(4) =: الفروق اللغوية /252.

وصيره عدما فضلا عن ان وقوع كلمة (شيئا) مفعولا به لـ (لم يجده) جعلته عدما مطلقا و في ذلك ابراز للمغزى و خيبة للامل، و شئ آخر في هذه الهاء و هو تهيئة الكلام لقوله بعد ذلك (ووجد الله عنده) فلو قال (لم يجد شيئا") بدون الهاء لكان متناقضاً مع قوله (ووجد الله)[1].

و لم تنته الرحلة بعد، فان لم يجد الكافرون نفعا لاعمالهم التي هي كالسراب، فانهم سيجدون الحساب و العقاب، ففي قوله (وجد الله) رهبة تخشع لها القلوب و الابدان، والاصل وجد وعد الله بالجزاء و العذاب[2]، وهنا تستكمل قوة المفاجاة وهول الصدمة، فلم تكن النتيجة خيبة وخسرانا فحسب، وانما عذاباً وعقاباً جاءت الفاء في قوله (فوفاه حسابه) لتعبر عن سرعة نزول العذاب، ولذلك عقب بقوله (والله سريع الحساب)، ويستكمل هذا الترهيب المفزع المروع باسناد توفية الحساب إلى ضمير ذي الجلال والاكرام مما يوحي بشدة الغضب وهول العقاب الذي سيناله الكافر، ذلك العقاب الذي لا يخرج عن حد العدل[3]، والذي تشير إليه لفظة (حسابه) فهو حساب دقيق رغم سرعة العذاب وشدة الغضب وهول الموقف. وهكذا ننظر إلى الصورة التشبيهية في القرآن الكريم جملة وتفصيلا، نتدبر الفاظها فتظهر خوافي المعاني واسرارها من نظم الكلمات، ونتذوق روعتها تذوقا نعي معه مااشار إليه الرماني من (حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة)، فهذه اربع يمكن ان نتخذها منطلقا في تحليل التشبيه واستشفاف بلاغته.

ونقف مع تحليل الرماني للشواهد الاخرى في هذا الضرب، من ذلك قـــوله تعتـالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [4]، يقول الرماني: ((فهذا بيان قد اخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة))[5]. فالرماني يبين طرفي التشبيه ووجه الشبه، ونلحظ انه اورد تشبيه اعمال الكافرين بالرماد بعد تشبيهها بالسراب

(1) =: الإعجاز البلاغي /103.
(2) =: الجامع لاحكام القرآن: 283/12.
(3) =: الإعجاز البلاغي /104.
(4) سورة ابراهيم: 18.
(5) ر / 82.

وكلاهما من عناصر الطبيعية مع اتحاد المشبه، ولكنه ابدع في استخراج الصفة المشتركة التي تجمع الطرفين في كل صورة، فقد ادرك اختلاف الصورة الاولى عن الثانية، إذ تجلي الاولى اللهفة وشدة الحاجة إلى الانتفاع بالاعمال ثم الخيبة والمفاجاة والحساب، لذلك كان التعبير القرآني دقيقا في التعبير عن هذه المعاني بلفظتي (الظمآن) و (السراب)، أمّا الصورة الثانية فتجلي عدم النفع لاعمال الكافرين لانها تتبدد هباء" وتضيع، ولذلك استخدم التعبير القرآني (الرماد) و (الريح) و (اليوم العاصف) وكلها تؤكد معنى الضياع[1]. وقد ادرك الرماني ذلك فقال في الاولى ((وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة))[2]، وقال في الثانية ((وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك))[3]، ويظهر الرماني غرض التشبيه بقوله ((وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة))[4]، وتتمثل الحسرة بالضياع الذي جسدته الفاظ الصورة، ويقابلها ضياع اعمال الكافرين إذ لا نفع لها، فضلا عن العجز عن الاستدراك في كلا الطرفين، أمّا (الموعظة البليغة) فهي الاثر النفسي الذي تجسده حركة المشاعر وامتثال الوجدان والخشوع لاوامر الله ﷻ، ولا شك ان الموعظة في كثير من المعاني المجسدة باحداث مصورة تكون ابلغ واقوى تأثيرا مما لو كانت باساليب اخرى، فلم يكن عرض المعاني في التشبيه بعناصر البيئة المحسوسة والمألوفة غرضا في نفسه ((وانما كان وسيلة لايضاح طريق الهداية والارشاد باثارة المقارنة والحث على التأمل لتقوم النفوس الطيعة النقية بوعدها بالثواب.. والعنيدة العصية بوعيدها بالعذاب والعقاب))[5]، فلصورة الرماد الذي تشتد به الريح في يوم عاصف تأثير بالغ وتجسيد حي لمعنى الضياع فضلا عن الدلالة على الاحتراق والخفة وقلة الشأن، لا سيما ان الريح قد (اشتدت به) فهذه الباء صورت الريح وقد اخذته في اتجاهات مختلفة وبعيدة ووصف اليوم بانه عاصف على سبيل المجاز العقلي - والعصف للريح - يشعر بعموم الوصف وشموله[6]. من هنا نجد ان هذه التشبيهات جاءت متسقة مع الغرض الذي

(1) =: الإعجاز البلاغي /105.
(2) ر / 82.
(3) ر/82.
(4) ر/82.
(5) الشبيهات القرآنية والبيئة العربية، د. ابتسام مرهون الصفار /11-12.
(6) =: من اسرار التعبير القرآني /21.

سيقت من اجله، وفي ضوء ذلك تتجلى خصيصة اخرى من خصائص التشبيه القرآني وهي التلاؤم في تشبيه الشيء الواحد - وهو هنا اعمال الكافرين - باشياء متعددة، كما تتجلى خصيصة اخرى تكمن في الفائدة التي أشار إليها الرماني وهي التأثير في النفس من خلال أسلوب الترهيب في عرض الصور التشبيهية وقد عبر عنها بقوله (الحسرة العظيمة والموعظة البليغة) وكأنه يتحسس دواخل النفس ويسمع تزايد نبضات القلوب اثر توالي احداث الصورة بالفاظها المتلائمة والمجسدة للمعاني الذهنية بصورة حية مألوفة، فوضع التشبيه وجها من وجوه الإعجاز البلاغي لانه ادرك ما وراءه من تأملات تسبح فيها العاطفة والعقل معا ((فليس التشبيه صورة شكلية جامدة وانما هو نبض وحركة وتصوير وانفعال واشارة شعورية))[1].

- ومن شواهده في هذا الضرب، قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[2]، يقول الرماني: ((فهذا بيان قد اخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمعا في ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفي التخسيس، فالكلب لا يطيعك في ترك اللهث حملت عليه أو تركته كذلك الكافر لا يطيع بالايمان على رفق ولا على عنف وهذا يدل على حكمة الله ﷻ في انه لا يمنع اللطف))[3].

وهكذا يبدع الرماني في بيان وجه الشبه، فصفة هذا الضال هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في اخس احواله واذلها، وتتقابل اجزاء هذا التشبيه التمثيلي (المركب) بانه يشبه الضال بالكلب، ويشبه شقاؤه واضطراب امره في فترة الكتاب عن الدين بلهث الكلب في حال تركه، ويشبه شقاؤه في اعراضه عن الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده[4]، وفي هذا التعدد يتجلى جانب من الإعجاز البلاغي في الصورة التشبيهية، وقد عبر الرماني عن ذلك بقوله (وقد اجتمعا في ترك الطاعة على وجه من

(1) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ /91.
(2) سورة الاعراف: 175 -176.
(3) ر /82.
(4) =: التحرير والتنوير:178/9.

وجوه التدبير) ثم عبر عن الغرض الآخر من هذا التشبيه وهو اظهار خسة المشبه وحقارته بقوله (وفي التخسيس) وقد سبقه في اظهار الوجه الاول لهذا التشبيه الجاحظ[1]. ولكن الرماني صور لنا من دخائل النفس الانسانية والحيوانية واشار إلى انكشاف المعنى الذهني عن طريق الصورة الحسية، فليس هناك حيوان تصلح حالته بالتشبيه في هذا السياق غير الكلب اللاهث. ونلحظ كيف استدل الرماني من خلال تحليله للصورة التشبيهية هذه على امتناع الكافر عن الايمان بارادته لا بالاجبار - وهو رأي اعتزالي - فذكر ان الله تعالى لا يمنع اللطف فقد وهبه الآيات ولكنه انسلخ منها بارادته الحرة.

- ومن شواهد هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ [2]. يقول الرماني: ((فهذا بيان قد اخرج مالاتقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه، وقد اجتمعا في الحاجة إلى نيل المنفعة، والحسرة بما يفوت من درك الطلبة، وفي ذلك الزجر عن الدعاء إلاّ الله ﷻ الذي يملك النفع والضر، ولا يضيع عنده مثقال الذر))[3]، فهو يبين وجه الشبه بين الطرفين وهو الحاجة إلى نيل المنفعة، وليس ذلك فحسب، وانما يصور لنا دخائل النفس الانسانية والتي تتمثل - في طرفي التشبيه - بمشاعر الحسرة والندم لعدم ادراك المطلوب، بل هو يعرض لنا الجانب الوظيفي للصورة التشبيهية، فهي نوع من الخطاب الوجداني عن طريق عرض (الاشراك) في مشهد تمثيلي يتجسد فيه المعنوي بصورة حسية حية متحركة مكتملة الاركان فيها الحدث والشخصية والحركة والهدف والنتيجة، وهكذا تكتمل الصورة التي تحس بها النفس ويدركها الوجدان فتحدث اثرها في نفوس المخاطبين، وقد عبر الرماني عن كل ذلك بقوله: (وفي ذلك الزجر عن الدعاء إلاّ الله ﷻ الذي يملك النفع والضر)، فقد ادرك ان التشبيه القرآني ليس مجرد رسم الصور الجميلة أو عقد بين طرفين يشتركان في صفة أو صفات متعددة، وانما له هدفه وغايته وهو أسلوب من أساليب الخطاب والدعوة في القرآن الكريم، وادرك الرماني هذه السمة البارزة للتشبيه وهي انه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضرا وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريبا دانيا[4].

(1) =: الحيوان:17/2.
(2) سورة الرعد: 14.
(3) ر/83.
(4) =: من بلاغة القرآن /208.

ثانيا: اخراج مالم تجر به العادة إلى ماقد جرت به:

- من شواهد هذا الضرب قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ ﴾ [1].

يتلون التعبير القرآني في عرض أسلوب الترهيب، فتارة يكون بالوعيد، وتارة يكون بالزجر والتحذير، وتارة بعرض مشاهد القيامة واحوال الكافرين فيها، وهنا نجد لونا آخر، وهو عرض مصارع الغابرين ممن لم يتبعوا الرسل فحق عليهم العذاب. فالآية تحكي عذاب قوم هود ونهايتهم، تلك النهاية التي كانت خرقا للمعهودات، فلابد إذاً من عرضها بنمط يصورها تصويرا دقيقا ويقرب ذلك الحدث المروع إلى الاذهان والنفوس، فكان التشبيه وسليلة وليس غاية، إذ لم يعهد العرب في زمن الرسول ﷺ مثل هذه الريح، فهو أمر لم تجر به عادة فلابد من اخراجه إلى ما قد جرت به عادة واصبح مألوفا ليتحقق الهدف من وراء ذلك، ولم يكن مما عهد يصلح ان يكون مشبها به لحال هؤلاء الكافرين في ذلك اليوم إلاّ مشهد إعجاز النخل المنقعر، وهو مشهد مألوف عند العرب.

ونتدبر الفاظ الآية لتتجلى - من خلال النظر في عناصر الصورة - بعض خصائص الصورة التشبيهية في التعبير القرآني.

تبدأ الآية بداية ترتعد لها القلوب وتخشع لها الابدان، فالله تعالى نسب الفعل لذاته، فهي نسبة تنبيء بشدة الغضب والسخط على هؤلاء، فالارسال هنا ارسال جبار مقتدر، ولفظة (عليهم) تدل على ان الارسال كان بتمكن، وتدل أيضاً على الشمول إذ شملتهم جميعا حتى لم يبق منهم نسمة[2]، ثم لفظة (ريحا) بصيغة النكرة تدل على الكثرة والتعظيم[3]، وقد وصفت هذه الريح بانها (صرصرا)، والصر هي الشديدة البرودة، ولا شك ان لجرس هذه اللفظة إيحاء مميزا، فالتكرار فيها يفيد مضاعفة المعنى[4]، مما يجلي أحدى سمات التلاؤم في التعبير القرآني، ويصف القرآن هذه الريح بانها (في يوم نحس مستمر)، فقد يكون التنكير هنا لاغفال جذب الانتباه إلى الزمن بل تركيزه نحو الحدث وعظمته، فهو يوم قد ((استمرعليهم ودام حتى اهلكهم.... ويجوز ان يريد بالمستمر الشديدة المرارة

(1) سورة القمر: من 19-20.
(2) =: الكشاف: 39/4.
(3) =: لغة القرآن الكريم /341.
(4) =: الإعجاز البلاغي /109.

والبشاعة))[1]، فالمستمر اكثر مرارة من (المر) ففي زيادة المبنى زيادة المعنى، بل يدل على الغاية في المرارة إلى حد المنتهى.

وثمة ملحظ آخر يتعلق أيضاً بالبناء الصوتي إذ للفاصلة دور في رسم الصورة وملامحها، فحرف (الراء) بتردده وتكراره في (صرصرا) و (مستمر) و (منقعر) يوحي بشدة تلك الريح وترددها عليهم من كل جانب، وتشير لفظة (تنزع) إلى معاناة القوم في مقاومة الريح والتشبث بالبقاء[2]، فضلا عن ايحائها بالغضب والقوة معا. وثمة ملحظ آخر في هذه اللفظة، ففي اللغة يقال نازعت النفس إلى كذا نزاعا أي اشتاقت[3]، والريح هنا هي التي (تنزع) فكأنها قد اشتاقت إلى عذابهم وهلاكهم، وفي ذلك غاية الدقة في التعبير القرآني، فضلا عن انها جاءت بصيغة المضارع - على الرغم من ان الحدث قد مضى - لتدل على ان النزع قد استمر فيهم حتى اهلكهم، ولتقريب الصورة للمتلقي ليعيش هذه اللحظات باحداثها.

ونصل إلى التشبيه بعد هذا التحليل لسياقه، فتحليل السياق امر ضروري ((لأن الترابط بين الخصائص ليوضح بعضها بعضا مهم جدا، ودراسة الصياغة ودلالات التراكيب ينبغي ان تكون مقدمة لدراسة كل صورة من صور البيان لانها هي الخطوط التي تتكون منها هذه الصور))[4]. فالاداة التي تربط الطرفين هي (كأنهم) وهي ((هنا في موضع الحال))[5]، ويختار التعبير القرآني جزءا من الطبيعة مألوفا ليقرب ما هو غير مألوف من الادراك، فكان المشبه به (أعجاز نخل منقعر)، وتتجلى دقة الاختيار في انها ((أعجاز فقط لا فروع ولا اغصان، قد انقطع عنها كل ما كان متصلا بها في الحياة))[6]، فضلا عن قرب قرب الشبه بينها وبين هؤلاء لا سيما وان القرآن قدوصفهم بطول القامة في قوله تعالى: ﴿ **وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً** ﴾ [7]، كما انها مما يستوي فيها المذكر والمؤنث[8] فتكون شاملة للمشبه فضلا عن انها بصيغة الجمع، وفي التنكير دلالة على بقاء بعض النخل حيا واقفا

(1) الكشاف: 39/4.
(2) =: الإعجاز البلاغي /109.
(3) =: مقاييس اللغة:415/5 مادة (نزع)، وتاج اللغة وصحاح العربية:1289/3 مادة (نزع).
(4) التصوير البياني، محمد ابو موسى /55-56.
(5) الجمان في تشبيهات القرآن، لابن ناقيا البغدادي /31.
(6) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية /162.
(7) سورة الاعراف: من 69.
(8) =: تاج اللغة وصحاح العربية: 883/3 مادة (عجز).

وان بيوتهم ظلت سليمة بدليل قوله تعـــالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [1]، والصورة المالوفة هي بقاء بعض النخل وسقوط بعضه[2]، وقد جاءت الصفة على التذكير بالحمل على اللفظ (النخل) ولو حملت على المعنى لجاءت مؤنثة[3]، و(المنقعر) المنقلع من أصله[4]، والملقى على الارض، وفي ذلك إشارة إلى انهم استئصلوا بهذا العذاب. ويوضح الرماني اركان هذه الصورة التشبيهية بايجازه المعهود إذ يقول ((وهذا بيان قد اخرج مالم تجر به عادة إلى ماقد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما، واهلاكها اياهما))[5]، وفي بيان الجانب الوظيفي للتشبيه وغايته يقول ((وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة))[6]، وهكذا يوضح الرماني هدف التشبيه وغايته، ويحاول دائماً اظهار الاثر النفسي وقوة مخاطبة الوجدان من خلال تنوع الاسلوب القرآني.

- ومن شواهد هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [7]، [7]، يقول الرماني: ((وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة)) [8]ويؤكد على اظهار غاية التشبيه بقوله ((وفيه اعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو عمله به ليطلب الفوز من قبله، ونيل المنافع بطاعته))[9]، وهكذا يؤكد الرماني أن المشبه قد قد انتقل من الغرابة والغموض إلى الالف والوضوح،إذ لم تعهد النفس البشرية رؤية جبل يقتلع من مكانه ويرفع فوق رؤوس القوم، فهي صورة لم تجربها عادة، فلذلك جاء التشبيه بالظلة - وهو الامر المألوف دائما - ليتحقق الوضوح اولا (باخراج مالم تجربه عاده إلى ماقد جرت به)، والتاثير ثانيا (لما في الآية من عظيم القدرة الالهية). واذا كان الرماني في هذه الشواهد ينظر إلى الصورة بوصفها وحدة متكاملة فيما توحي به من جلائل المعاني ولا ينظر احيانا إلى النسق في النظم فانه قد اعطانا نموذجا للنظر في الصياغة وذلك في تحليله لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا

(1) سورة الاحقاف: من 25.
(2) =: من أساليب البيان في القرآن الكريم، محمد علي ابو حمدة /72.
(3) =: الكشاف:39/4.
(4) =: ل: 109/5 مادة (قعر)، الجامع لاحكام القرآن: 37/17.
(5) ر / 83.
(6) ر/ 83.
(7) سورة الاعراف: من 171.
(8) ر / 83.
(9) ر / 83.

﴾ [1] فقد كان مدركا لهذا الجانب واكتفى بما أشار إليه هناك وأوجز في تحليلاته الاخرى، فلا يمكن ان يعد ذلك مأخذا عليه كما المح إلى ذلك الدكتور فتحي احمد عامر[2]. وهكذا نجده أيضاً في تحليله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [3]، يقول الرماني: ((هذا بيان قد اخرج مالم تجربه عادة إلى ماقد جرت به وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده))[4]، وعن وظيفة هذا التشبيه يقول: ((وفي ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر في ان كل فان حقير وان طالت مدته وصغير وان كبر قدره))[5].

- ويورد الرماني شاهدا آخر لايختلف كثيرا عن الشاهد السابق وهو قوله تعـــالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾ [6]، يقول الرماني:((وقد اجتمعا في شدة الاعجاب ثم في التغير بالانقلاب، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها))[7]. واذا كان الرماني قد اورد كلا الشاهدين في ضرب واحد، فان تحليله ونظرته للصورة التشبيهية وغايتها في الشاهد الاول تختلف عنها الثاني، ففي الآية الاولى ادرك الرماني ان وجه الشبه هو الزينة والبهجة ثم الهلاك، إذ ان التشبيه هنا تشبيه تمثيلي متعدد اللوحات واللقطات - على الرغم من أن المشبه لم يات مفصلا كما جاء المشبه به - والتفصيل في الثاني اغنى عن الاول، فنزول الماء من السماء يقابله في احوال المشبه بدء الحياة واشراقة الامل، والاختلاط يقابله مرحلة الشباب والنظارة. واخذ الزينة والزخرف هو الاكتمال والنضوج، ثم الهلاك يقابله انقضاء الحياة وسرعة زوالها[8]. وقد اوجز الرماني ذلك في ثلاثة الفاظ هي (الزينة والبهجة والهلاك). وقد ادرك ان المشبه به في هذه الصورة جاء مفصلا تفصيلا كاملا ولم يكن فيه طي لاي مرحلة من مراحله ولذلك قال: (وان طالت

(1) سورة النور: من 39.
(2) =: بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ /93.
(3) سورة يونس: من 24.
(4) ر / 83.
(5) ر / 83.
(6) سورة الحديد: من 20 .
(7) ر / 83.
(8) =: التحرير والتنوير: 143/11.

مدته)، وادرك ان في الآية الثانية اختصارا في احوال المشبه به، فاللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر يقابله في الطرف الثاني قوله (ثم يهيج) ولذلك قال الرماني (التغيير بالانقلاب) بعد ذلك الاعجاب. ويبرز الجانب الوظيفي للتشبيه وهو التحذير من الاغتزار بالدنيا والسكون إليها، وقد يسال سائل: هل ان الحياة الدنيا تعد مما لم تجربه العادة كما يقول الرماني؟ والحق ان حال الدنيا في بهجتها وفنائها مشهد يتكرر دائما، إلاّ ان الرماني ادرك ان الاحساس به ليس بنفس درجة الاحساس بصورة النبات في بهجته وفنائه، فمشهد النبات من مظاهر الطبيعة الدائمة يراه الانسان في كل وقت ويحسه ويرى فيه الفناء، ولذلك يعمد التعبير القرآني إلى هذه الصور، ولذلك وضعها الرماني في هذا الضرب، فالانسان يكون غافلا عن حقيقة هذه الحياة فلا بد من الصورة التشبيهية التي تنبه إلى الهدف وتدعو إلى العبرة والموعظة لا سيما وان الله قد جعلها للمتفكرين ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1]، ولذلك يقول الرماني: (والموعظة لمن تفكر)، والغاية كما أشار الرماني هي العبرة والموعظة، فما دام الفناء هو النهاية فلا قيمة لكل لذة وان طالت مدتها، وكذلك تصغير شأن الدنيا والتحذير من الاغترار بها، فهي كالماء من حيث إنه لا يستقر في موضع ولا يستقيم على حالة واحدة، واذا كان بقدر كان نافعا واذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا[2].

- ومما لم تجر به عادة واخرج إلى ما قد جرت به (انشقاق السماء) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [3]، يقول الرماني مبينا وجه الشبه: ((وقد اجتمعا في الحمرة وفي لين الجواهرالسيالة))[4]. فالتوضيح إذا هو من وظائف التشبيه، فضلا عن تقريب الصورة إلى الاذهان وتأثيرها في النفس، ويزيد الرماني على ذلك بقول: ((وفي ذلك الدلالة على عظيم الشأن ونفوذ السلطان لتنصرف الهمم بالامل إلى هناك))[5]، ولا شك ان التشبيه الاول فيه تشبيه بليغ إذ حذفت الاداة ووجه الشبه، وهو اعلى مراتب التشبيه لانه يفيد معنى الاتحاد في الطرفين ولما فيه من اختصار وتصور وتخيل[6]، فحذف

(1) سورة يونس: من 24.
(2) =: الجامع لاحكام القرآن: 412/10.
(3) سورة الرحمن: 37.
(4) ر / 83.
(5) ر / 83.
(6) =: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار /232.

فحذف وجه الشبه يكسب التشبيه قوة وروعة وتاثيرا إذ يذهب الظن فيه كل مذهب[1]، وهكذا التشبيه الآخر في الآية: (كالدهان)، فهو تشبيه ثان للسماء[2]، ولا شك ان ما ذكره الرماني في وجه الشبه اولى واقرب مما ذكره ابو عبيدة الذي ذهب إلى ان لونها كلون الورد، وهذا لا ينسجم مع الآيات الاخرى إلتي وصفت حال السماء في ذلك اليوم، فما ((توحية الورود بل الزرع بصورة عامة إنما هو ايماء بالفرحة والنشوة وهو ايماء بعيد كل البعد عن الموقف الرهيب يوم القيامة))[3]. فضلا عن ان الرماني أشار إلى التشبيهين في الآية، كقوله (وقد اجتمعا في الحمرة) يعود على التشبيه البليغ (فكانت وردة)، وقوله (في لين الجواهر السيالة) يعود على التشبيه الآخر (كالدهان).

ثالثا: اخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة:

- من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

يقول الرماني: ((فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا في ضعف المعتمد ووهاء المستند، وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع شعور بما فيه التوهين))[5].

والآية جاءت بعد ذكر اخبار الامم السابقة لبيان حال من اشرك منهم ولم يتبع الرسل، وهي تلخص صورة الاشراك في كل زمان ومكان ، وقد عمد التعبير القرآني إلى تصوير الاشراك بصورة لا تدانيها صورة اخرى، فكل من اشرك من الامم السابقة واللاحقة ينطبق عليه المثل فقد اتخذ المشركون لهم سندا واهيا لا قوة له ولا وقاية، فاجهدوا انفسهم وعاشوا دنياهم بلا حياة، فحقيقة الحياة هي ما خلق الانسان من اجله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[6]، وقد جاءت الصورة التشبيهية ناطقة بكل جوانب المعنى المقصود، و التشبيه هنا متعدد اللوحات والاجزاء، فالمشركون قد شبهوا بالعناكب،

(1) معجم المصطلحات البلاغية: 180/2.
(2) =: التحرير والتنوير: 261/27.
(3) التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة /82.
(4) سورة العنكبوت: 41.
(5) ر / 84.
(6) سورة الذاريات: 56.

واتخاذهم اولياء من دون الله شبه باتخاذ العنكبوت بيتا، وما اتخذ للعبادة شبه ببيت العنكبوت، فكل هذه الاجزاء جاءت مترابطة متحدة لتشكل الصورة التشبيهية الكاملة بكل اركانها محققة الوضوح والتأثير، فضلا عما ذكره الرماني من التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين.

ومما يتجلى من سمات التشبيه في الآية، دقة اختيار الالفاظ، من ذلك لفظة (اتخذوا) والتي تكررت في وصف فعل المشبه والمشبه به، ولكن الاتخاذ المنسوب لهؤلاء المشركين هو بمعنى العبادة، أمّا الاتخاذ المنسوب للعنكبوت فهو بمعنى النسج[1]، وثمة ملحظ آخر في هذا التقابل بين اللفظتين يتمثل في الضمير المتصل بهما، فالواو في (اتخذوا) وهي للجمع قوبلت بالتاء في (اتخذت) وهي للتانيث وفي ذلك تصغير لشان جمعهم وتوحدهم على الباطل فهم بهذا الفعل ادنى من انثى العنكبوت مكانة وقوة، لأن من شان المشبه به ان يكون - في الغالب - اعلى رتبة من المشبه واوضح، أمّا لفظه (اولياء) فقد اوثرت على غيرها من مثل (الهة)، وفـي ذلك ((إشارة إلى ابطال الشرك الخفي أيضاً))[2]، فضلا عن انها جاءت منكرة لتوحي بتنوع هؤلاء الاولياء وتشملهم جميعا، فمنهم من عبد الاصنام ومنهم من عبد غير ذلك، والدلالة الاخرى لهذا التنكير، تحقير هذه المعبودات والتقليل من شأنها ان كان لها شأن، كما ان تأخير لفظة (اولياء) بعد قوله تعالى (من دون الله) يوحي أيضاً بتحقيرهم، وان العبادة لا تكون إلاّ لله ﷻ.

ويقابل لفظة (اولياء) في الطرف الآخر - أي المشبه به - لفظة (بيتا) بصيغة النكرة أيضاً تحقيرا له وتصغيرا لشأنه، فهو مجرد بيت تنسجه وتجهد في بنائه وهندسته لكنه لا يقيها حرا ولا بردا ولا يحقق لها امنا من أي شيء، وهكذا هؤلاء الاولياء، بل ان بيت العنكبوت ربما فيه فائدة لها وهي الاصطياد، ولذلك حسن ان يكون جزءا من المشبه به ولا فائدة للمشركين من عبادتهم هذه، ولذلك لم يكن البيت مشبها به وانما كان جزءا منه وكان (اتخاذه بيتا) هو الاصل في التشبيه، لأن ذلك امر باطل كاتخاذ االمشركين اولياء من دون الله[3]، ولا شك ان وجه الشبه الذي أشار إليه الرماني ينبثق من هذه الدقائق، فضعف المعتمد ووهاء المستند هو الصفة التي تجمع بين الطرفين، فضلا عن الدقة في اختيار

(1) =: بصائر ذوي التمييز: 58/2.
(2) التفسير الكبير: 68/25.
(3) =: م ن: 68/25.

التعبير القرآني هذه الصورة من بين اجزاء الطبيعة الاخرى ذلك انها مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة[1].

أمّا الجمع بين (الكاف) و (مثل) فهو للتوكيد والمبالغة في التشبيه[2]، والتوكيد بها لفظي ومعنوي، أمّا اللفظي ((فهو ان زيادة الحرف في الكلام تفيد ما يفيده التوكيد اللفظي من الاعتناء به... واما المعنوي فلانه من باب قول العرب (مثلك لا يفعل)، فنفو الفعل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته لانهم قصدوا المبالغة في ذلك))[3]، وهنا تتجلى النكتة اللطيفة في التعبير القرآني، ففي لفظة (كمثل) تعبير عن تحقير شأن المشركين وأوليائهم، فلم يشبهوا بالعناكب مباشرة، أي لم يقل (كالعنكبوت) وانما (كمثل العنكبوت)، فلم تصل صفة تفاهة فعلهم هذا حتى إلى درجة فعل العنكبوت وانما كان فعلهم كمثل ما يشبه العنكبوت في فعلها ان كان هناك ذلك، فضلا عن ان (الكاف) تفيد تشبيه الصفات، و(المثل) يفيد تشبيه الذوات[4]، فالجمع بينهما يفيد توكيد الامرين.

ومما تستند إليه الصورة التشبيهية، اتخاذ العنكبوت بيتا، والتأنيث في (اتخذت) هو تأنيث إيحاء ودلالة فضلا عن انه تأنيث حقيقة، فالعلم اثبت ان الانثى هي التي تصنع البيت، مما يوحي بضعف البيت ووهن بانيه[5]، وثمة لطيفة اخرى تشترك في وجه االشبه وهي ان هؤلاء المشركين مثلهم هنا كالعنكبوت إذ هي تملك الخيوط لبناء مستحكم، ولكنهم بتوجههم بالعبادة إلى غير الله يكونون كمن يملك مادة البناء ولا يحسن استعمالها فلا ينتفع بها[6]، كما ان صيغة الفعل (اتخذت) و (اتخذوا) توحي بالجهد المبذول الذي يذهب سدى ولا يعود بفائدة. ولا يكتفي التعبير القرآني باكتمال الصورة التشبيه على الرغم من انها معروفة لدى الناس ومألوفة، بل يقرر حقيقة صفة المشبه به ويؤكدها وذلك في قوله تعالى: (وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فـ (ان) وصيغة (اوهن) واللام في (لبيت) كل ذلك لتوكيد تلك الحقيقة وبيان ضعف المعتمد ووهاء المستند، فضلا عن تخصيص صفة الغاية في الوهن لهذا البيت ويتمثل ذلك في (اوهن) وفي (البيت)، ولا شك ان تكرار لفظ (بيت العنكبوت)

(1) =: الكشاف: 206/3.
(2) =: الجني الداني / 138، الامثال في القرآن الكريم /155.
(3) =: الجني الداني / 138.
(4) =: م ن /128.
(5) =: من اساليب البيان في القرآن / 78.
(6) =: الجنى الداني / 78 .

يفيد التوكيد أيضاً فلم يقل (وانه لاوهن البيوت) بل اثر التكرار لأن فيه تأثيرا على النفس من خلال التوكيد.

وهكذا تتجلى بلاغة الصورة التشبيهية من خلال النظر في وظيفتها البيانية واحوال المعاني التي تنهض ببيانها وتأثر النفس بها وهو ما اوجزه الرماني بقوله: ((وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين مع الشعور بما فيه التوهين))[1] فالمشركون قد اشبهوا العناكب بالغرور بالعمل المشوب بالجهل والغفلة حتى ليعجزون عن ادراك البدهي المنظور[2]، ويصور الرماني دخائل النفس الانسانية والحيوانية أيضاً وذلك ان المشركين والعناكب يشعر كل منهم بوهن المعتمد، ولكنه يغتر بالعمل وقد يكون هناك علاقة بين نسج العنكبوت بيتها من لعابها وبين اتخاذهم الالهة بافواههم وكلامهم مع العلم بداخلهم انه لا فائدة من ذلك[3]، وهذا ما أشار إليه الرماني بـ (الشعور بما فيه التوهين).

وثمة ملحظ آخر في هذه الصورة التشبيهية الرائعة ذلك ان العنكبوت لا تتخذ بيتها إلاّ في الاماكن المهجورة التي لا تأخذ حظها من الاهتمام وهكذا يلقي التعبير القرآني ضوءا بطريق ايحائي جذاب يكشف به نفوس هؤلاء الوثنيين المتسخة باقذار التخلف والضلال وفي ذلك من التحقير ما فيه[4].

وثمة معنى آخر يمكن استشفافه مما يوحيه اسم (العنكبوت) ((إذ لا تخلو دلالته من معنى الايهام والخديعة التي تتمثل في خطوط وشباك البيت الذي تنسجه العنكبوت لايقاع فريستها فيه وهذا الايحاء قد يقابل في المعنى الاصلي ما يعبد من دون الله من اولياء لا تخلو عبادتهم من المكر والخديعة التي يقع في شباكها ضعاف العقول والبصيرة))[5].

وفي اجتزاء هذه الصورة من الطبيعة تتجلى سمة اخرى من سمات التشبيه القرآني ذلك انها غير مقيدة ببيئة معينة ولا تنحصر في عصر دون عصر بل هي باقية تتكرر في كل زمان ومكان، وتشكل مع انماط التعبير القرآني الاخرى جوانب من سر الخلود لهذا الكتاب العظيم.

---

(1) ر /84 .
(2) =: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب /37.
(3) =: التحرير والتنوير: 252/20.
(4) =: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز / 238.
(5) الاستعارة في القرآن الكريم، احمد فتحي رمضان، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة الموصل، 1988 /ص 179.

- ويورد الرماني شواهد اخرى لهذا الضرب من التشبيه منها قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [1]، يقول الرماني: ((فهذا تشبيه قد اخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما تقرر في النفس من الامور، والتشويق بالجنة إلى حسن الصفة مع ما لها من السعة، وقد اجتمعا في العظم))[2]، فهو يظهر فائدة التشبيه التي تتوزع دائما -في تعليقاته - على امرين هما: الوضوح والتاثير، فعرض الجنة وسعتها مما لا يعلمه إلاّ الله، ولأجل هذا الوضوح عمد التعبير القرآني إلى أسلوب التصوير التشبيهي، ولما كان من عادة العرب انها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله[3]، وكان أرحب وأفسح ما تعرفه النفوس هو عرض السماء والأرض فقد عمد إلى هذه الصورة ليحقق التشبيه فائدته الثانية وهي التأثير والتي عبر عنها الرماني بـ (التشويق بالجنة الى حسن الصفة مع ما لها من سعة)، ولا شك انه جزء من اسلوب الترغيب القرآني.

- ومن شواهد هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ [4]، يقول الرماني: ((وهذا تشبيه قد اخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا في الجهل بما حملا، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية))[5]. فقد شبه اليهود وهم حملة التوراة غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، بالحمار يحمل كتبا كثيرة من كتب العلم ولا ينتفع ولا يصيبه شيء سوى الكد والتعب، وهذا مثل كل من علم ولم يعمل بعلمه[6]، والصورة التشبيهية هنا تتكون من اجزاء عدة ((فالتشبيه لايتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار، ثم لا يتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الاسفار، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار))[7] وفي ذلك تتجلى سمة اخرى من سمات التشبيه القرآني وهي دقة التشبيه بالوصف والتقييد لزيادة وضوح الصورة[8]، فالقيد خلق الصلة الوثيقة بين الطرفين وهي

(1) سورة الحديد: من 21.
(2) ر /84.
(3) =: الجامع لاحكام القرآن: 256/17.
(4) سورة الجمعة: من 5.
(5) ر / 84.
(6) =: الكشاف: 103/4.
(7) اسرار البلاغة / 114.
(8) =: من بلاغة القرآن / 199.

هنا الحمل والجهل وعدم الانتفاع، وقوله (حملوا التوراة) أي كلفوا علمها والعمل بها[1]، ولهذه اللفظة اثر في دقة التشبيه إذ ان ((الحافظ للشيء في قلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره وعلى ذلك يقال (حملة العلم) و (حملة الحديث)))[2]. ويذهب الرماني إلى ابعد من ذلك حين يتحدث عن وظيفة التشبيه، والتي تتمثل في ان المثل هنا لكل من علم ولم ينتفع ولم يعمل بعلمه، بل يرى الرماني ان في المثل زجرا وعيبا لكل من ضيع العلم بالاعتماد على الحفظ من غير دراية لما يحفظ، فمن حفظ من غير دراية كان جاهلا شبيها بهذا المشبه به في هذه الصورة، وعلى الرغم من ادراك الرماني سر اختيار (الحمار) مشبها به في هذه الصورة ذلك انه مثل حي للغباوة والغفلة عند العرب، إلا انه يذهب إلى ما وراء الصورة التشبيهية إذ يلتفت إلى ما يتعلق بمستويات الوعي بالاشياء أو مستويات ادراكها[3]، من البداهة والألف والعادة والحواس وغير ذلك، فالكشف عن المعاني واظهارها وبيان فائدتها واثرها النفسي هو مناط الكتاب عند الرماني.

- ومن شواهد هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[4]، يقول الرماني:((وهذا تشبيه قد اخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الاجساد من الارواح، وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الامر إلى ذلك المال))[5]، وهنا لا بد من السؤال، لماذا وضع الرماني هذه الصورة التشبيهية في هذا الضرب في حين انه وضع قوله تعالى: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[6]' في الضرب الثاني؟ ولاشك ان ذلك ينبئ عن دقة الرجل وادراكه لكل جزئيات الصورة التشبيهية وابعادها.

ففي آية سورة القمر كان التشبيه وصفا لحالهم حين انتزعتهم الريح من الارض وذلك امر لم تجر به عادة، أمّا في هذه الآية فالتشبيه وصف لما صاروا إليه من الجمود ويبس الاعضاء وخلائها من الحياة وهو امر لا يعلم بالبديهة فلا بد من تشبيهه بامر يعلم بها

(1) =: الكشاف: 103/4.
(2) اسرار البلاغة:118.
(3) =: الإعجاز البلاغي / 110.
(4) سورة الحاقة: 7.
(5) ر / 84.
(6) سورة القمر: من 20.

وهو خلو أعجاز النخل من الحياة[1]، وقد ادرك الرماني كل ذلك إذ قال في الاولى ((وقد اجتمعا في قلع الريح لهما))[2]، وقال في الثانية ((وقد اجتمعا في خلو الاجسادمن الارواح))[3]، كما ادرك الفرق في الوظيفة البيانية للتشبيه فقال هناك ((وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة))[4]، ويقول هنا ((وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الامر إلى ذلك المال))[5]، ولا شك ان قوله ((خلو الاجساد من الارواح)) إشارة إلى ان التشبيه بالخواء دليل على ان القوم لم يكن فيهم من ايمان في حياتهم الدنيا فكأنهم كانوا اجسادا بلا ارواح[6]، و الرماني في كل ذلك لا ينظر إلى قوة الصفة المشتركة أو ضعفها فقط، وانما ينظر إلى مستوى الوعي بالصفة في المشبه به ومستوى ادراكها، فالخلو من الحياة صفة مشتركة في هذا التشبيه، إلاّ انها لم تكن في الجذوع اقوى منها في المشبه وانما النظر في هذه التشبيهات يكون إلى ادراك الصفة والوعي بها فالمهم هو تقريب الصورة غير المألوفة بابرازها بصورة معتادة مألوفة[7].

ان تشبيه هؤلاء باعجاز النخل المنقعر تارة وباعجاز النخل الخاوية تارة اخرى لهو دليل على ان التشبيهات القرآنية تأتي ((متسقة مع الغرض الذي سيقت من اجله))[8]، وهي سمة فنية اخرى من سمات التشبيه القرآني.

(1) =: الإعجاز البلاغي / 111، ورسالة الرماني تحليل ونقد / 127.
(2) ر /83.
(3) ر /84.
(4) ر / 83.
(5) ر / 84.
(6) =: من أساليب البيان في القرآن / 77.
(7) =: الإعجاز البلاغي / 111 -112.
(8) البلاغة فنونها وافنانها، فضل حسن عباس / 88.

رابعا: اخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها:

- من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [1]، يقول الرماني: ((وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيه بالايمان الباطل والقياس الفاسد وفي ذلك دلالة على تعظيم حال المؤمن بالايمان وانه لا يساوى به مخلوق على صفته في القياس))[2]، ومثله قوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [4]، وقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [5].

ونعود الى الآية لنتامل الفاظها ونتدبر معانيها، فقد حسب هؤلاء - واهمين - ان لهم منزلة مع اكتساب السيئات وفعل المعاصي مساوية لمنزلة المؤمنين، فجاءت الآية لتصور انكار هذا الحسبان ونفيه وتقرر ان لا اقتراب في أي صفة من صفات الشبه بين الطرفين، فتبدا الآية بـ (ام) المنقطعة التي تجمع بين الاضراب والاستفهام الانكاري[6] الذي يفيد بطلان هذا الحسبان، وقد اثر التعبير القرآني استخدام (حسب) دون (ظن) لأن ((الظن ضرب من الاعتقاد وقد يكون حسبان ليس باعتقاد))[7] فتكون (حسب) هنا ابلغ لانها تحمل معنى الاعتقاد الذي بداخلهم فتعبر عن المعنى ادق تعبير، وهكذا الفظة (اجترحوا)، فلم يقل (اكتبسوا) ذلك ان الاجتراح من جوارح الانسان وهي اعضاؤه التي يكتسب بها[8]، فهم قد اكتسبوا السيئات بكل جوارحهم، فالجرح يفيد من جهة اللفظ انه فعل بجارحة والكسب لايفيد ذلك[9]، فاداء اللفظة للمعنى لايؤديه غيرها، فضلاعن ان صيغة (الافتعال) فيه للمبالغة[10].

(1) سورة الجاثية: 21.
(2) ر / 85.
(3) سورة التوبة: 19.
(4) سورة السجدة: 18.
(5) سورة القلم: 35.
(6) =: الكشاف: 511/3، التحرير والتنوير: 351/25.
(7) الفروق اللغوية /79.
(8) =: تاج اللغة وصحاح العربية: 358/1 مادة (جرح).
(9) =: الفروق اللغوية /112.
(10) =: التحرير والتنوير: 353/25.

وقوله (ان نجعلهم) أي نصيرهم[1]، وقد يكون بمعنى (الحكم) وهو احد معاني الجعل الجعل أيضاً[2]، ثم تاتي اداة التشبيه والتي تؤذن بان المشبه به اعلى شانا وابعد منزلة من المشبه، ولاشك ان الصورة هنا قد ضمت مقابلة بلاغية[3]، تمثلت في انكار ان يستوي الفريقان فقوبل بينهما، ثم بين حياتهم ومماتهم، وكذلك بين اعمالهم في الحياة الدنيا من ارتكابهم السيئات، وايمان المؤمنين وعمل الصالحات، ثم المقابلة بين احوالهم عند الموت، إذ الياس والعذاب للكافرين والبشرى والرحمة للمؤمنين، فضلا عما يتضمنه ذلك من المقابلة في الاثر النفسي في نفوس الفريقين لاسيما بعد قوله تعالى (ساء ما يحكمون)، إذ تغمر الفرحة قلوب المؤمنين، وتقطع الخيبة انفاس المشركين، وليس ذلك فحسب فالاثر النفسي لايختص بهؤلاء وانما يمتد ليشمل كل من يتلقى هذا البيان العجيب والحكم العادل، ففرحة المؤمنين في كل زمان ومكان لاتعادلها فرحة، لأن الله تعالى قد عظم من حال المؤمن ووضعه بمنزله لايساوي به مخلوق على صفته بالقياس، فضلا عما كشفه التشبيه من قياس الكافرين الفاسد وايمانهم الباطل، وهكذا نجد دقة الرماني في تلخيص الوظيفة البيانية لهذا التشبيه والنظر فيما وراء الصورة من انفعالات نفسية ليس لاشخاص الصورة فحسب، وانما لناظريها أيضاً.

- ومن شواهد هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾[4] يقول الرماني: ((فهذا تشبيه قد اخرج مالاقوة له في الصفة الى ماله قوة فيها وقد اجتمعا في العظم إلاّ ان الجبال اعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الاقطار البعيدة فيها))[5].

اظهرت الصورة التشبيهية الصفة المشتركة بين الطرفين وهي العظم، فضلا عن الدقة في ايثار الفاظها على غيرها، إذ ((لم يقل الفلك، لما في الجري من الإشارة الى باهر القدرة، وقال (في البحر) ولم يقل في الطمطام ولا العياب وان كانت من اسماء البحر لكون البحر اسهل واسلس ثم قال (كالاعلام) ولم يقل كالروابي ولا كالاكام ايثارا للاخف الملتذ به

(1) =: الكشاف: 511/3.
(2) =: الفروق اللغوية /111.
(3) =: الكشاف: 512/3.
(4) سورة الرحمن: 24.
(5) ر / 85.

وعدولا عن الوحشي المشترك))[1]، مما يظهر تلاؤم اللفظ مع المعنى وتلاؤم النظم مع الصورة بكاملها، فجرس هذه الالفاظ بخفته وسلاسته يوحي بخفة وسلاسة سير الفلك في البحر وفي ذلك العبرة من جهة القدرة العظيمة للخالق، فضلا عن ان التشبيه قد افاد تعظيم شان الجواري في صنعها المقتضي بداعة الهام عقول البشر لصنعها والمقتضي عظم المنة بها[2] لما فيها من الانتفاع وقطع الاقطار البعيدة.

وبعد، فقد حاول الكتاب تجلية الإعجاز البلاغي في الصورة التشبيهية منطلقا من منهج الرماني في تحليلاته، ذلك المنهج الذي يتسم بمميزات عدة تتمثل في:

1- بيان طرفي التشبيه ووجه الشبه.

2- اظهار غرض التشبيه وفائدته.

3- النظرالى ما في التشبيه من عنصر البيان والكشف.

4- النظر الى الصورة التشبيهية بوصفها وحدة متكاملة.

5- النظر الى عناصر الصورة وجزئياتها وتركيبها وسر ايثار بعض الالفاظ على غيرها.

6- بيان الاثر النفسي ويتوزع ذلك على جانبين:

الاول: الكشف عما يختلج صدور اشخاص الصورة التشبيهية من مشاعر واحاسيس.

الثاني: اظهار مالهذه الصورة من اثر نفسي في المتلقي.

7- الدقة التي اعتمدها الرماني في استكشاف الصفة المشتركة وبيان فائدة التشبيه، وقد تجلت هذه الدقة في تحليلاته للايات التي شبهت اعمال الكافرين بالسراب والرماد، والايات التي شبهت الحياة الدنيا بالماء النازل الى الارض، والايات التي شبهت قوم هود باعجاز النخل.

8- حاول الرماني من خلال تعليقاته على الصور التشبيهيه التلميح الى بعض سمات التشبيه القرآني وقد اثبتها الكتاب كل في موضعها.

(1) الطراز: 215/3 - 216.

(2) =: التحرير والتنوير: 252/27.

9- لم ينظر الرماني - في تذوقه لروعة التشبيهات القرآنية - الى قوة الصفة المشتركة فقط، وانما نظر الى مستوى وعي المتلقي لهذه الصفة وقوة ادراكه لها.

10- ادرك الرماني ان التشبيه القرآني لم يكن نمطا من انماط التصوير يهدف الى الجمال اللفظي فقط وانما كان التصوير التشبيهي يستتبع المعنى ولذلك قال ((فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانا فيهما))[1].

11- لم يكن الإعجاز عند الرماني في موضع التشبيه فحسب وانما كان في تلاؤم اجزاء الصورة التشبيهية بكاملها وتلاؤمها مع النظم، ودقة ادائها للمعنى والغرض الذي جاءت من اجله وقوة هذا الاداء ولذلك أشار الى ((حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة))[2].

ان اهمية ماسطره الرماني في مبحث التشبيه تتجلى - بعد كل ما تقدم - في تاثر البلاغيين به ونقلهم عنه، فقد نقل ابو هلال العسكري[3] عنه الامثلة والتعليقات بكاملها دون ان ينسبها الى الرماني. ونقل ابن رشيق[4] عن الرماني أيضاً، فضلا عن اثره في الشيخ عبد القاهر الجرجاني وقد اشرنا الى ذلك من قبل[5]، ونقل ابن ابي الاصبع المصري[6] تعريف التشبيه واقسامه واغراضه وامثلته، ونقل الزركشي[7] أيضاً اقسام التشبيه الواردة عند الرماني مع شواهدها. ولشهرة ماخلفه الرماني في مبحث التشبيه ونقل هؤلاء البلاغيين عنه، نجد كثيرا من المحدثين ينقلون - سهوا - تراث الرماني البلاغي من مؤلفات غيره من العلماء وينسبونه لهؤلاء البلاغيين الذين نقلوه عن الرماني، من ذلك مانجده في كتاب الدكتورعبد العزيز عتيق[8]، والدكتور احمد مطلوب[9] والدكتورة واجدة الاطرقجي[10]،

(1) ر / 81.
(2) ر / 82.
(3) =: كتاب الصناعتين /262 - 264.
(4) =: العمدة: 241/1، 256-257.
(5) =: ص من هذه الرسالة.
(6) =: تحرير التحبير: 159/1.
(7) =: البرهان في علوم القرآن: 421/3 - 422.
(8) =: علم البيان / 64.
(9) =: معجم المصطلحات البلاغية: 180/2.
(10) =: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية / 94، 97، 232.

ولعل السبب في ذلك هو ان القدماء الذين نقلوا عن الرماني منهم من لم يذكره سهوا أو لشهرة تلك الاقوال في ذلك العصر. والاعجب من ذلك ان الدكتور حفني محمد شرف يذكر اوجه التشبيه التي ذكرها الرماني وينسبها لنفسه وكأنه يدعي انه ابتكرها إذ يقول: ((وقد وجدت في القرآن الكريم شواهد لتقسيم آخر غير تقسيمات التشبيه، وهو يقع في خمسة اوجه))[1].

ان تراث الرماني البلاغي لايقل اهميه عن تراث غيره من العلماء، لاسيما وان البلاغة في عصره لم تدخل بعد عصر القولية ووضع التقسيمات والتفريعات الجامدة التي تضيع روعة البلاغه وجمال تذوقها، ولذلك لم يشأ الكتاب ان يدخل تراث الرماني في هذه القوالب والتفريعات التي جاءت بعده، بل عمل الكتاب الى تناول هذا التراث بما يحتويه من جمال وروعة ودقة ايمانا بان ((المصطلحات البلاغية في التحليل البلاغي ليست اكثر من دلائل لاستكشاف الجمال))[2]، وهي نظرة - يرى الكتاب - انها الاجدى في تناول تراث العلماء وفي الدراسة البلاغية بشكل عام والبلاغه القرآنية بشكل خاص.

(1) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق /326.
(2) البلاغة العربية تأصيل وتجديد / 5.